الرموز البصرية في رسوم الأطفال: مدخل لتحليل الذاكرة العاطفية والتشخيص النفسي

Visual Symbols in Children's Drawings: An Analytical Approach to Emotional Memory and Psychological Diagnosis

م. م. نجوان ثامر عبد الزهرة

Assist Lect. Najwan Thamir Abdulzahraa

كلية الفنون الجميلة / جامعة بابل

College of Fine Arts / University of Babylon

Fin650.najan.thammer@uobabylon.edu.iq

ملخص البحث

في ظل التطورات المتسارعة التي تشهدها الحياة المعاصرة، تبرز رسوم الأطفال كظاهرة ثقافية ونفسية لا تقتصر على كونها مجرد نشاط فني، بل هي لغة صامتة تعبر عن المكنونات النفسية والعاطفية العميقة، وانعكاس صادق للخبرات والانفعالات التي يمر بها الطفل. فالفن عند الطفل يعد الوسيلة المثلى للتعبير عن ذاته وخلجاته وتفاعله مع العالم المحيط، وغالباً ما يعمل كقناة اتصال آمنة تتيح له التفريغ الانفعالي ومواجهة صراعاته اللاشعورية بطريقة رمزية.

وتفترض عملية إنتاج الرسم عند الطفل استدعاء رموز بصرية من الذاكرة أو الخيال وتوظيفها في الفضاء التصويري، مما يسبغ على الرسم صفة تربطه بالذاكرة العاطفية وما تحمله من شحنات وجدانية. هذه الرموز (من خطوط، وألوان، وأشكال) لا تخضع لمعايير الواقعية، بل لـ "تمثيل وجداني" يعكس ما يشعر به الطفل لا ما يراه، مما يجعلها أداة تشخيصية غير مباشرة للكشف عن البنية النفسية للطفل.

وعلى هذا الأساس، تناولت الباحثة موضوع البحث الموسوم بـ (الرموز البصرية في رسوم الأطفال: مدخل لتحليل الذاكرة العاطفية والتشخيص النفسي)، وقد انتظم البحث في أربعة فصول؛ تناول الفصل الأول مشكلة البحث التي تلخصت في التساؤلات الآتية: ما دلالة الرموز البصرية في رسوم الأطفال على محتويات الذاكرة العاطفية لديهم؟ وإلى أي مدى يمكن اعتمادها كأدوات للتشخيص النفسي؟ .

وكان هدف البحث هو الكشف عن الرموز البصرية ودلالاتها النفسية، وتحليل العلاقة بين محتوى الرسوم والذاكرة العاطفية الكامنة خلفها.

وجاءت أهمية البحث من خلال الآتي:

١.الكشف عن الرموز البصرية ودلالاتها النفسية في رسوم الأطفال.

٢.تحليل العلاقة بين محتوى الرسوم والذاكرة العاطفية الكامنة خلفها.

أما في الفصل الثاني (الإطار النظري)، فقد قسمته الباحثة إلى مبحثين: تناول المبحث الأول بسيكولوجيا التعبير الفني عند الطفل ومفهوم الذاكرة العاطفية. وعني المبحث الثاني بالرموز البصرية في رسوم الأطفال:

الوظائف والدلالات النفسية. وفي الفصل الثالث (إجراءات البحث)، حددت الباحثة مجتمع البحث وعينته البالغة (٣٠٠) رسماً لأطفال تراوحت أعمارهم بين (٦-١٢) سنة. واعتمدت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي. أما في الفصل الرابع، فقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

١. تُعد الرموز البصرية في رسوم الأطفال مفتاحاً لفهم الذاكرة العاطفية، حيث تعكس الصراعات اللاشعورية والدوافع النفسية بطريقة رمزية صادقة.
٢. هناك مواءمة فطرية بين رسوم الأطفال والأسلوب التجريدي والرمزي، مما يجعل من الرسم قناة اتصال آمنة للتفريغ الانفعالي.

واختتم البحث بتوصيات أكدت ضرورة اعتماد الرسم أداة تشخيصية داعمة في المجالين التربوي والنفسي للكشف المبكر عن المشكلات الانفعالية.

الكلمات المفتاحية : (رسوم الأطفال، الرموز البصرية، الذاكرة العاطفية، التشخيص النفسي).

Abstract

In light of the rapid developments characterizing contemporary life, children's drawings emerge as a cultural and psychological phenomenon that goes beyond being a mere artistic activity. Rather, they constitute a silent language through which deep psychological and emotional contents are expressed, and an authentic reflection of the experiences and emotions that the child undergoes. Art, for the child, represents the optimal means of self-expression and interaction with the surrounding world, often functioning as a safe communicative channel that enables emotional release and the symbolic confrontation of unconscious conflicts.

The process of producing a drawing involves recalling visual symbols from memory or imagination and employing them within the pictorial space, thereby imbuing the drawing with a quality closely linked to emotional memory and its affective charges. These symbols (lines, colors, and shapes) do not adhere to realistic criteria; rather, they follow an "emotional representation" that reflects what the child feels rather than what he or she sees. This renders children's drawings an indirect diagnostic tool for uncovering the child's psychological structure.

On this basis, the researcher addressed the topic entitled "Visual Symbols in Children's Drawings: An Approach to Analyzing Emotional Memory and Psychological Diagnosis." The study is organized into four chapters. The first chapter presents the research problem, formulated through the following questions: What are the implications of visual symbols in children's drawings for the contents of their emotional memory? To what extent can these symbols be relied upon as tools for psychological diagnosis?

The aim of the research is to identify visual symbols and their psychological connotations, and to analyze the relationship between the content of drawings and the underlying emotional memory. The significance of the research lies in:

١- Revealing visual symbols and their psychological meanings in children's drawings,

٢- Analyzing the relationship between drawing content and the latent emotional memory behind it.

The second chapter (the theoretical framework) is divided into two sections. The first addresses the psychology of artistic expression in children and the concept of emotional memory, while the second focuses on visual symbols in children's drawings, examining their functions and psychological meanings.

In the third chapter (research procedures), the researcher defined the research population and sample, which consisted of (300) drawings by children aged between (6–12) years. The descriptive–analytical method was adopted.

The fourth chapter presents the research findings, the most important of which are: (1) visual symbols in children's drawings constitute a key to understanding emotional memory, as they reflect unconscious conflicts and psychological drives in a sincere symbolic manner; and (2) there is an innate compatibility between children's drawings and abstract and symbolic styles, making drawing a safe channel for emotional discharge.

The study concludes with recommendations emphasizing the necessity of adopting drawing as a supportive diagnostic tool in both educational and psychological fields for the early detection of emotional problems.

Keywords: (Children's drawings, Visual symbols, Emotional memory, Psychological diagnosis).

الفصل الأول/ منهجية البحث

اولاً. مشكلة البحث :

تُعد رسوم الأطفال لغة صامتة تعبر عن دواخلهم النفسية والعاطفية، فهي أكثر من مجرد خطوط وألوان، بل هي انعكاسات للخبرات والانفعالات والمواقف التي مر بها الطفل. وتُبرز هذه الرسوم رموزاً بصرية يمكن تحليلها لفهم الذاكرة العاطفية التي تحتفظ بها ذاكرة الطفل، سواء كانت سارة أو صادمة. من هذا المنطلق، يسعى هذا البحث إلى تحليل الرموز البصرية في رسوم الأطفال بوصفها مؤشرات نفسية يمكن توظيفها في تشخيص حالاتهم النفسية، خاصة أن الرسم يعد وسيلة تعبير تلقائية وصادقة عند الطفل.

وتكمن مشكلة البحث في غياب الوعي الكافي بأهمية الرموز البصرية في رسوم الأطفال بوصفها دلالات على الذاكرة العاطفية، وما يترتب على ذلك من إمكانات تشخيصية يمكن استثمارها في مجالات علم النفس التربوي والعلاجي.

وصيغة مشكلة البحث بالتساؤل الآتي: ما دلالة الرموز البصرية في رسوم الأطفال على محتويات الذاكرة العاطفية لديهم؟ وإلى أي مدى يمكن اعتمادها كأدوات للتشخيص النفسي؟ .

ثانياً. أهمية البحث:

يسهم البحث الحالي في إثراء الأدبيات التربوية والنفسية حول العلاقة بين الرموز الفنية والذاكرة العاطفية. ويقدم أدوات تحليلية يمكن استخدامها في تشخيص الحالات النفسية للأطفال

بطريقة غير مباشرة وغير تصادمية. كما يمكن ان يعين المعلمين والمرشدين التربويين في فهم الجوانب النفسية غير المعلنة لدى الأطفال من خلال نتاجهم الفني.

ثالثاً. هدف البحث:

١.الكشف عن الرموز البصرية ودلالاتها النفسية في رسوم الأطفال.

٢.تحليل العلاقة بين محتوى الرسوم والذاكرة العاطفية الكامنة خلفها.

رابعاً. حدود البحث:

الحدود الموضوعية: دراسة الرموز البصرية في رسوم الأطفال وتحليلها نفسياً.

الحدود البشرية: أطفال تتراوح أعمارهم بين٦–١٢ سنوات.

الحدود الزمانية: العام الدراسي ٢٠٢٤–٢٠٢٥.

الحدود المكانية: مدارس ابتدائية مختارة في محافظة بابل.

خامساً: تعريف المصطلحات:

لغوياً:

الرموز: هي جمع "رمز"، وتدور في اللغة حول الإشارة التي تُفهم دون كلام. "تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون إيماءً بالشفتين، والرَّمْزُ: الإشارةُ بالعَيْنِ والحاجِبِ والشَّفَةِ والفَمِ."[١]

البصرية: تنسب "البصرية" إلى البَصَر، وهو القوة التي تدرك بها العين الأجسام والألوان. والمعنى"البَصَرُ: حِسُّ العَيْنِ، والجمعُ أَبْصارٌ. وقد بَصُرْتُ بالشيء أَبْصُرُ به بَصَراً: إذا رأيتهُ. والبَصيرةُ: هي خُبْرُ القلبِ، ويُقال: بَصُرْتُ به بَصَراً: أي صارَ عندي مَعلوماً ومَرئياً."[٢]

الرسوم: هي مجمع "رسم"، وهي تدل في اللغة على الأثر أو الكتابة أو التصوير، والرسم: هو الأثر، وقيل أثر الشيء، ورسمتُ شيئاً أي كتبتُه، والرسوم هي الآثار الباقية من الشيء."[٣]

الذاكرة: مشتقة من الفعل (ذَكَرَ)، والذِّكْرُ هو نقيض النسيان، وهو حُضور الشيء في القلب أو العقل. والذاكرة هي القوة التي تحفظ ما يُدركه العقل وتستعيده عند الحاجة.

الاطفال: هي جمع "طفل"، وتدور في اللغة حول الشيء الصغير الناعم من كل شيء، و"الطِّفْلُ: المولودُ ما دامَ ناعماً رخصاً، ويُطلق على الولدِ حتى البلوغ. والطفلُ من كل شيءٍ: الصغيرُ منه، ويُقال طَفَّلَتِ الشمسُ إذا مالت للغروب (أي في بدايات غروبها)[٤]."

العاطفية: كلمة مشتقة من العَطْفُ: هو الانحناءُ، ويُقال: ناقةٌ عَطُوفٌ أي مُحِبَّة لولدها. والعاطفةُ: هي صِلةُ القَرابةِ والرحم، وسُميت عاطفةً لأنها تَعْطِفُ (تميل) بالإنسانِ نحو غيره بالرقة والشفقة."[٥]

اصطلاحاً:

الرموز البصرية:

١- هي عناصر أساسية في اللغة البصرية للفن التشكيلي، فهي ليست مجرد أشكال أو ألوان تحصرها دلالات حسية بحتة، بل تتجاوز ذلك إلى حمولات معنوية وثقافية وفكرية، تشكل عبرها دلالة متعددة الأبعاد تتفاعل مع إدراك المتلقي داخل إطار ثقافي واجتماعي محدد، وتتألف هذه الرموز من عناصر الخط، الشكل، اللون، والملمس التي يتم ترتيبها وتكوينها بطريقة تولد مدلولاتٍ ذات طابع رمزي، تعبر عن معانٍ تتجاوز البعد المرئي المباشر(٦).

٢- لغة بصرية تتجاوز الشكل الحسي المباشر، حاملةً إشارات دالة على الثقافة والقيم الاجتماعية، وتحليلها يتيح فهماً معمقاً للرسائل الإنسانية التي ينقلها العمل الفني، ما يجعلها وسائط فنية تحمل أبعاداً إنسانية متعددة(٧).

وتعرف الباحثة الرموز البصرية اجرائياً :

" تلك العناصر البصرية (كالخطوط، الأشكال، الألوان، الأحجام، التراكيب) التي يستخدمها الأطفال في رسومهم التعبيرية، والتي تحمل دلالات معنوية تمثل محتوى ذاكراتهم العاطفية وانفعالاتهم النفسية. ويتم التعامل مع هذه الرموز كوسائل تحليلية تُستخرج منها مؤشرات نفسية وعاطفية تساعد في فهم الحالات الانفعالية للأطفال من خلال الرسوم، مع مراعاة السياق الثقافي والاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل".

ثانياً. رسوم الأطفال :

١- هي نتاج فني تعبيري غير لفظي، يستخدمه الطفل في مراحل نموه المختلفة للتعبير عن ذاته ومحيطه، وهي تعكس مستوياته النفسية والعقلية والاجتماعية(٨).

٢- هي أشكال فنية تنبع من عالم الطفل الداخلي، وتمثل وسيلة للتواصل والتعبير عن المشاعر والأفكار، وتعتبر من الأدوات المهمة لفهم شخصية الطفل وحالته النفسية(٩).

وتعرف الباحثة رسوم الأطفال اجرائياً" أنها الأعمال الفنية المرسومة بخط اليد من قبل أطفال تتراوح أعمارهم بين (٦-١٢) سنوات، والتي تحتوي على رموز بصرية تعبّر عن ذاكرتهم العاطفية وتجاربهم النفسية، ويتم تحليل هذه الرسوم للكشف عن الانفعالات والمشاعر الكامنة لديهم.

ثالثاً. الذاكرة العاطفية :

١- هي نوع من أنواع الذاكرة التي تحتفظ بالتجارب والمشاعر المرتبطة بها، بحيث تؤثر هذه الذكريات في استجابات الفرد العاطفية في المستقبل(١٠).

٢- هي القدرة على استرجاع التجارب المرتبطة بالمشاعر والانفعالات، مما يجعل التجارب العاطفية جزءاً مركزياً في تشكيل السلوك الإنساني(١١).

وتعرف الباحثة الذاكرة العاطفية اجرائياً :

" المخزون النفسي من المشاعر والانفعالات التي يحملها الطفل من تجاربه السابقة، والتي يعبّر عنها بشكل غير مباشر من خلال الرموز البصرية في رسومه".

رابعاً. التشخيص النفسي:

١- هو عملية تحديد طبيعة الاضطرابات النفسية أو الحالات الانفعالية للفرد بناءً على دراسة سلوكه ومشاعره وأفكاره، باستخدام أدوات وأساليب تقييم مختلفة(١٢).

٢- هو تقويم الحالة النفسية للفرد من خلال تحليل المؤشرات السلوكية أو الرمزية بهدف فهم المشكلات النفسية ووضع خطة علاجية أو إرشادية(١٣).

وتعرف الباحثة التشخيص النفسي اجرائياً:

"أنه العملية التي من خلالها تُحلل الرموز البصرية في رسوم الأطفال لاستخلاص مؤشرات انفعالية ونفسية تساعد في تقييم حالتهم النفسية بشكل غير مباشر".

الفصل الثاني/ الإطار النظري

المبحث الأول/ سيكولوجيا التعبير الفني عند الطفل ومفهوم الذاكرة العاطفية .

يُعد الرسم عند الطفل من أقدم وأصدق أشكال التعبير النفسي غير اللفظي، إذ يُترجم عبرهُ مشاعره التي لا يستطيع التعبير عنها بالكلام أو السلوك المباشر، فتتحول المساحة الورقية إلى فضاء رمزي يتيح له التفريغ الانفعالي والتواصل مع ذاته(١٤).

ويشير (القريطي) إلى أن الطفل، بخلاف الراشد، يعتمد في تعبيره الفني على "التمثيل الوجداني أكثر من الإدراك الواقعي"، أي أنه يرسم ما يشعر به لا ما يراه(١٥). ومن هنا تكتسب رسوم الأطفال بعداً نفسياً يتجاوز حدود الجمال أو المهارة، لتصبح نوعاً من "اللغة الإسقاطية" التي تفصح عن البنية العاطفية للشخصية في لحظة الرسم(١٦).

لقد أثبتت الدراسات النفسية، منذ بدايات القرن العشرين، أن التعبير الفني عند الأطفال لا يمكن فصله عن النشاط الانفعالي؛ فالخطوط المتوترة قد تُعبر عن حالة من القلق أو الاضطراب الداخلي، بينما الخطوط الملساء والمستمرة تعكس شعوراً بالأمان والثقة(١٧). كما أن اختيار الألوان لا يخضع غالباً لمعايير جمالية بل لحالات وجدانية؛ فالألوان الدافئة مثل الأحمر والبرتقالي قد ترمز إلى الحيوية أو الغضب، بينما الألوان الباردة مثل الأزرق تميل إلى التعبير عن الانطواء أو الهدوء أو الحزن(١٨).

يذهب (حامد زهران) إلى أن الرسم يُعد من أهم أدوات الكشف عن العالم النفسي للطفل، إذ يمكن من خلاله قراءة الدوافع والصراعات اللاشعورية التي تُعبر عنها بطريقة رمزية(١٩). فحين يرسم

الطفل بيتاً بلا نوافذ، قد يدل ذلك على شعوره بالعزلة أو الخوف من العالم الخارجي، وحين يُبالغ في حجم شخصية معينة، فذلك يُعبر عن المكانة التي تحتلها هذه الشخصية في وجدانه أو خوفه منها[٢٠].

ويشير (عبد الفتاح) إلى أن الرسم الطفولي، بصفته وسيلة غير لفظية، يُعد أكثر صدقاً من التعبير الكلامي لأن الطفل لا يُخضعه للرقابة الشعورية أو الاجتماعية[٢١]، ومن ثم فهو مادة نفسية خام يمكن قراءتها بعين التحليل النفسي والتربوي.

إن قيمة الرسم تكمن في كونه قناة اتصال داخلية، تُتيح للطفل مواجهة انفعالاته بطريقة آمنة وبعيدة عن التهديد، كما أنه يمنحه الإحساس بالتحكم والسيطرة على عالمه من خلال تحويل الانفعال إلى شكل مرئي قابل للملاحظة والتحليل. ومن هنا، يمكن القول إن التعبير الفني لدى الطفل هو عملية نفسية معقدة تجمع بين الإدراك، والانفعال، والخيال، والإسقاط الرمزي للذات[٢٢].

وتعد الذاكرة العاطفية أحد المكونات الجوهرية في بنية الوعي الطفولي، إذ تختزن التجارب الوجدانية الأولى التي يعيشها الطفل في علاقاته الأسرية والاجتماعية، لتصبح فيما بعد مرجعاً داخلياً لسلوكه وتعبيره[٢٣]. ويرى (عبد الحميد جابر) أن الذاكرة العاطفية تُسجل الأحداث لا بوصفها معلومات محايدة، بل بصورتها الانفعالية المصاحبة، فتتحول التجربة إلى أثر نفسي قابل للاستدعاء في مواقف مشابهة[٢٤].

ويُشير (عدنان الطائي) إلى أن الدماغ الطفولي يمتلك قدرة عالية على "ترميز الخبرات الانفعالية" ضمن ما يُعرف بالدارات العصبية الانفعالية، حيث تعمل اللوزة الدماغية (Amygdala) والحُصين (Hippocampus) على ربط المشاعر بالمواقف، لتُصبح الذاكرة العاطفية وسيطاً بين الخبرة الحسية والاستجابة السلوكية[٢٥].

وعليه، فإن الطفل عندما يتعرض لتجربة تحمل شحنة وجدانية قوية، سواء كانت إيجابية أم سلبية، فإنها تترسخ في ذاكرته الانفعالية، وتنعكس لاحقاً في نتاجاته التعبيرية، بما في ذلك الرسوم[٢٦].

إن العلاقة بين الذاكرة العاطفية والرسم علاقة تفاعلية؛ فالطفل لا يستدعي الحدث كما جرى حرفياً، بل يعيد تشكيله في مخيلته وفق منظوره العاطفي، ليعبر عنه بصرياً بأسلوب رمزي. فعندما يرسم الطفل مشهداً عائلياً يضم جميع الأفراد ما عدا أحدهم، قد يُشير ذلك إلى أثر نفسي مرتبط بذلك الغياب، حتى وإن لم يكن مدركاً له إدراكاً شعورياً[٢٧]. وتُظهر الدراسات أن الأطفال يميلون إلى ترميز تجاربهم المؤلمة أو المفرحة عبر اللون والشكل أكثر من المشهد الواقعي نفسه، فالألوان القاتمة، مثلاً، قد ترتبط بمشاعر الحزن أو الخوف، بينما تميل الألوان الفاتحة إلى استدعاء خبرات السرور والطمأنينة[٢٨].

إن الذاكرة العاطفية ليست مجرد خزان للتجارب، بل هي عملية دينامية تفاعلية تُوجّه السلوك والتعبير الفني بصورة مستمرة. فهي تتدخل في اختيار الطفل للعناصر المرسومة، وطريقة توزيعها في

الفضاء البصري، وفي تحديد طبيعة العلاقات بين الأشكال. ولذلك، فإن دراسة الرسوم الطفولية تتيح لنا رؤية كيف تعمل الذاكرة العاطفية كمنظومة إدراكية . انفعالية . رمزية تُعيد تشكيل الخبرة الإنسانية على الورق[٢٩].

وتُعد ظاهرة "الإسقاط" من المفاهيم المحورية في التحليل النفسي، وهي العملية التي ينقل الفرد من خلالها مشاعره ودوافعه اللاشعورية إلى موضوع خارجي. وقد تناولها (فرويد) و(بادلوف) وغيرهما باعتبارها إحدى آليات الدفاع النفسي التي تُساعد على التخفيف من التوتر الداخلي عبر الإزاحة الرمزية[٣٠].

وفي سياق رسوم الأطفال، يتجلى هذا الإسقاط في تحويل الانفعالات الداخلية إلى صور وأشكال بصرية تمثل بدائل رمزية لتلك المشاعر، فيرسم الطفل الوحوش عندما يشعر بالخوف، أو يرسم المطر عند الحزن، أو يرسم الشمس عند الفرح والاطمئنان[٣١].

وتؤكد (الهنيدي) أن الرسم يشكل "مسرحاً داخلياً للطفل" تُعرض فيه رموزه اللاشعورية دون وعي منه، مما يجعل من تحليل الرموز وسيلة لتشخيص حالته النفسية[٣٢]. ومن خلال دراسة عناصر التكوين، كاللون والحجم والموضع، يمكن استكشاف الانفعالات المضمرة، إذ إن الطفل لا يستطيع إخفاء انفعالاته في الرسم كما يفعل بالكلمات. فالشكل المرسوم ليس مجرد تمثيل للواقع، بل هو إسقاط لموقف شعوري يعيشه الطفل، وقد يتكرر عبر رسوم متباينة في الظاهر لكنها تتوحد في رموزها العاطفية[٣٣].

ويشير (محمد عبد الفتاح) إلى أن القراءة التحليلية للرسوم، من منظور نفسي، تُعد مدخلاً لفهم الحالة الانفعالية للطفل، لا سيما عندما تكون الرسوم متكررة في رموزها وألوانها[٣٤]. فالتكرار، في هذا السياق، هو شكل من أشكال "الإصرار الوجداني"، أي محاولة غير شعورية لتفريغ محتوى عاطفي لم يُحل بعد.

ويُعد هذا الفهم جوهرياً في ربط الفن بوظيفته العلاجية، إذ إن إدراك الرموز الإسقاطية في الرسم يتيح للمعالج أو الباحث النفسي قراءة الرسائل غير المنطوقة وفهم مسار الذاكرة العاطفية في سلوك الطفل وتعبيره الفني[٣٥].

من هنا، يُمكن القول إن الرسم الطفولي يمثل صورة بصرية للذاكرة العاطفية، حيث تتحول التجربة الشعورية إلى بنية رمزية قابلة للقراءة، تجمع بين الوعي واللاوعي، بين الإدراك والانفعال، وبين الحاضر والماضي في آنٍ واحد.

ومن زاوية مكملة تُعد البيئة التي ينشأ فيها الطفل إطاراً حاسماً في تشكيل خبراته الانفعالية ورموزه البصرية، إذ لا يمكن النظر إلى الرسم الطفولي بمعزل عن المحيط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الطفل. فالرسوم، في جوهرها، انعكاس لما يختبره الطفل من مواقف داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع، وتعبير غير مباشر عن طبيعة العلاقات الإنسانية التي تحيط به[٣٦].

يشير عبد (المطلب القريطي) إلى أن البيئة النفسية والاجتماعية تمثل المنبع الأول للمضامين التي تظهر في رسوم الأطفال، فهي التي تُغذي خياله وتحدد مسار موضوعاته المرسومة[٣٧]. فالطفل الذي يعيش في بيئة آمنة ومليئة بالتشجيع غالباً ما يرسم شخصيات باسمة، وألواناً دافئة، وتراكيب متناسقة؛ بينما الطفل الذي يفتقد الإحساس بالأمان قد يميل إلى رسم أشكال مشوهة أو خطوط حادة وألوان قاتمة تعكس شعوره الداخلي بالتهديد أو الحرمان[٣٨].

لقد أكد علماء النفس التربويون أن البيئة الأسرية هي أول مسرح نفسي تتكون فيه الرموز البصرية لدى الطفل. فالعلاقة بين الطفل ووالديه، أو بينه وبين الإخوة، تحدد نوعية الصور التي يستحضرها في خياله. فعندما يشعر الطفل بالعطف والاحتواء، يظهر ذلك في رسومه على هيئة "ترابط مكاني" بين الأشكال، كأن يرسم العائلة متقاربة ومتفاعلة، أما إذا كان يعاني من التهميش أو الإهمال، فقد يرسم نفسه في زاوية منعزلة أو يصغر حجمها مقارنة ببقية الأشكال[٣٩]

وهذه العلامات ليست مجرد تفاصيل شكلية، بل شواهد رمزية على طبيعة العلاقة العاطفية بين الطفل ومحيطه الأسري.

من جانب آخر، تلعب المدرسة دوراً موازياً في بلورة البنية الانفعالية والبصرية لرسوم الأطفال. إذ يرى (أحمد زكي) صالح أن بيئة المدرسة لا تقتصر على نقل المعرفة، بل تُسهم في بناء "الذاكرة الانفعالية الاجتماعية" من خلال التفاعل مع الزملاء والمعلمين[٤٠]. فالتجارب اليومية في المدرسة – سواء كانت مواقف تشجيع أو عقاب أو تجاهل – تُختزن في الذاكرة العاطفية وتظهر على الورق بصور رمزية لاحقاً. وقد لاحظت بعض الدراسات أن الأطفال الذين يشعرون بالضغط المدرسي يرسمون الفصول الدراسية بألوان داكنة أو وجوه حزينة، بينما الأطفال الذين يعيشون بيئة مدرسية داعمة يميلون إلى الألوان المشرقة وتوزيع العناصر بانسجام[٤١].

وفي هذا السياق ترى الباحثة أنه لا يمكن إغفال تأثير البيئة الثقافية العامة في صياغة الرموز البصرية للطفل. إذ إن الثقافة توفر البنية الرمزية التي من خلالها يتعلم الطفل كيف يرى العالم وكيف يعبر عنه. فالرموز الشائعة في الثقافة – كالشمس أو العلم أو الطيور – تتحول إلى "لغة بصرية مشتركة" يكتسبها الطفل من خلال التنشئة الاجتماعية ووسائل الإعلام والاحتكاك بالآخرين[٤٢]. ويشير (الطائي) إلى أن الأطفال في البيئات ذات الطابع الديني أو التقليدي يميلون إلى استخدام الرموز المستمدة من معتقداتهم وقيم أسرهم، في حين أن الأطفال في بيئات أكثر انفتاحاً ثقافياً يبتكرون رموزاً جديدة تعبر عن فردانيتهم وتجاربهم الخاصة[٤٣].

إن البيئة الاجتماعية لا تترك أثرها فقط في المحتوى الموضوعي للرسم، بل تمتد إلى الأسلوب التعبيري ذاته. فطريقة استخدام الطفل للخط والمساحة، ومدى جرأته في توزيع الألوان أو التكوين، تعكس إلى حد بعيد طبيعة المناخ النفسي الذي يعيش فيه. الطفل الذي يتربى في بيئة

تُشجع التجريب والتعبير الحر غالبًا ما تكون رسومه غنية بالتنوع والحركة، بينما الذي يعيش في بيئة قمعية أو مقيّدة يُظهر نوعاً من التردد في الخطوط أو الالتزام المفرط بالنمطية(٤٤).

يؤكد (حامد زهران) أن العلاقة بين الطفل وبيئته علاقة تبادلية مستمرة، فكما تتأثر رسوم الطفل بالبيئة، فإن هذه الرسوم يمكن أن تُستخدم بدورها كأداة تشخيصية لفهم طبيعة تلك البيئة(٤٥). فالمعالج النفسي يستطيع من خلال قراءة الرموز البصرية في رسومات الطفل أن يستدل على وجود صراعات أسرية أو ضغوط اجتماعية، لأن الرسم هنا يتحول إلى "لغة بيئية" تكشف عن البنية الانفعالية المحيطة بالطفل.

إن ما يميز الرسوم الطفولية هو قدرتها على التقاط الجوهر النفسي للعلاقات لا مظهرها الخارجي؛ فهي لا تنقل الواقع كما هو، بل كما يُدركه الطفل ويُعيد تشكيله انفعالياً. ولهذا فإن تحليل الرسوم يتطلب قراءة سياقية تأخذ في الحسبان البيئة الاجتماعية والثقافية للطفل، لا مجرد العلامات الشكلية المنفصلة عن سياقها(٤٦).

ومن هذا المنطلق، فإن فهم دور البيئة في تكوين محتوى الرسوم يساعد الباحث على تفسير الرموز البصرية بوصفها مرآة عاكسة للذاكرة العاطفية ضمن سياقها الحياتي، لا باعتبارها علامات معزولة أو عشوائية.

وترى الباحثة في هذا المجال أن الطفل لا يرسم البيئة كما يراها، بل كما "يعيشها شعورياً"؛ فكل خط أو لون أو رمز هو نتيجة لتفاعل داخلي بين ما اختزنه وجدانه من خبرات، وبين ما تتيحه البيئة من إمكانات أو قيود.

ولذلك فإن دراسة رسوم الأطفال ينبغي أن تكون تحليلاً لتاريخهم العاطفي بقدر ما هي تحليل بصري لنتاجاتهم، لأن كل خط مرسوم هو أثر لخبرة عاشها، وكل رمز هو ذاكرة مرئية تتجاوز الورق لتفصح عن الإنسان في أصدق لحظاته.

المبحث الثاني/ الرموز البصرية في رسوم الأطفال: الوظائف والدلالات النفسية .

تُعد الرموز البصرية في رسوم الأطفال منظومة دلالية مركبة تتجاوز حدود الشكل إلى عمق المعنى، إذ تعبر عن محتويات اللاشعور، وعن الأثر العاطفي للتجربة الحياتية، وعن صورة الذات كما تُدركها النفس الطفولية في سياقها الاجتماعي والثقافي، إن دراسة هذه الرموز تُسهم في فهم الحالة الانفعالية للطفل، وتكشف عن أبعاده الوجدانية والمعرفية من خلال ما يختاره من أشكال وألوان وتكوينات(٤٧). فالرمز البصري لا يُقرأ بوصفه مكوناً تشكيلياً فحسب، بل بوصفه "لغة نفسية صامتة" تعبر عن انفعالات لا يمكن التعبير عنها بالكلمات(٤٨).

وإذ يُعرف الرمز البصري بأنه "تعبير تصويري أو تشكيلي يختزل معنى نفسياً أو وجدانياً في هيئة مرئية" (٤٩). وهو وسيلة الطفل في تحويل خبراته الداخلية إلى صور، فيجعل من الشكل أو

اللون أو الحجم دلالة على حالة عاطفية كامنة فالطفل بعفويته الإدراكية لا يرسم الواقع كما هو بل يعيد بناءه رمزياً وفقاً لموقفه النفسي منه(٥٠).

ويشير (القريطي) إلى أن رموز الأطفال لا تأتي صدفة، بل تُبنى على منظومة من الخبرات الانفعالية المكتسبة من البيئة، فهي تشكل معجماً بصرياً متفرداً لكل طفل يعكس تركيبته النفسية الخاصة(٥١). أما (منال الهنيدي) فتؤكد أن هذه الرموز تشبه لغة الحلم في طبيعتها، إذ تعتمد على التشبيه والتكثيف والإبدال، ولا يمكن تفسيرها إلا بربطها بالسياق العاطفي للطفل(٥٢).

وتنشأ الرموز البصرية من تفاعل مستمر بين الثقافة والذات. فالثقافة تمنح الطفل قاموساً من الصور والمفاهيم البصرية التي تُصبح لاحقاً أدوات للتعبير عن ذاته، بينما تعمل شخصيته على إعادة تشكيل تلك الرموز بما يتناسب مع تجربته الفردية(٥٣).

فالطفل الذي يعيش في بيئة حضرية حديثة قد يميل إلى رسم الأبنية والسيارات والرموز التقنية، في حين أن الطفل في بيئة ريفية يُعبر عن عالمه من خلال الطبيعة والحيوانات والعناصر الزراعية. لكن الدلالات النفسية لهذه الرموز تظل مرتبطة بالذاكرة العاطفية، لا بمجرد السياق الموضوعي للرسم(٥٤).

وتشير (الهنيدي) إلى أن الخلفية الدينية والاجتماعية تُسهم في توجيه حساسية الطفل الجمالية، إذ تضع له إطاراً من الرموز المقبولة والمحرمة، مما يجعله يُعيد إنتاج رموزه ضمن حدود ثقافية محددة(٥٥). بينما يرى (الطائي) أن الثقافة لا تفرض الرموز فحسب، بل تُسهم في تكوين الاستجابة الانفعالية للرمز، فلكل بيئة طاقتها الشعورية الخاصة تجاه اللون أو الشكل أو التكوين(٥٦).

وهكذا تصبح الرموز البصرية نتاجاً مزدوجاً للثقافة والذات، حيث يتقاطع المعنى الجمعي مع المعنى الفردي في لحظة الرسم. فالطفل لا يستنسخ ما يتلقاه من رموز ثقافية، بل يعيد تشكيلها وفق تجربته الخاصة، فيجعلها محملة بشحنات وجدانية تمثل جزءاً من تاريخه النفسي.

وإذ يُعد الرسم الطفولي من أكثر الوسائط الفنية قدرةً على الكشف عن البنية النفسية الداخلية للطفل، لأنه يمثل آلية إسقاطية تسمح للانفعالات المكبوتة بالظهور في شكل رموز وصور، فالطفل لا يرسم ما يراه بالضرورة، بل ما يشعر به حيال ما يراه(٥٧). فالطفل الذي يعيش صراعاً بين الحب والخوف من أحد الوالدين قد يُعبر عن هذا التناقض من خلال رسم شخصيات بأحجام غير متناسبة أو بوجوه مشوهة، في حين أن مشاعر الفقد أو الغياب تظهر غالباً في صورة مساحات فارغة أو عناصر ناقصة من التكوين(٥٨).

وتشير الدراسات إلى أن بعض الرموز تتكرر بشكل لافت في رسوم الأطفال ذوي الحالات النفسية الخاصة؛ فالشمس الصغيرة أو المختفية قد تدل على مشاعر الحزن أو انطفاء الأمل، بينما البيوت المغلقة النوافذ ترمز إلى الانطواء أو القلق الاجتماعي(٥٩).

ويُؤكد (زهران) أن هذه العلامات لا يمكن تفسيرها بمعزل عن السياق الانفعالي العام للطفل، لأن الرمز الواحد قد يحمل دلالات مختلفة باختلاف التجربة الشخصية(٦٠). لذا، لا بد من دمج

التحليل الرمزي مع الفهم السيكولوجي للسلوك العام للطفل لتجّنب التعميم الخاطئ. إن التحليل الإسقاطي للرموز في رسوم الأطفال يتيح للباحث النفسي أو المعلم التربوي فهم أعمق لخبرات الطفل العاطفية، فهو "ينصت إلى ما وراء الصورة"، فيقرأ مشاعر الخوف والأمان، والعزلة والانتماء، كما لو كانت نصاً بصرياً مكتوباً بلغة الألوان والخطوط[٦١].

وترى الباحثة من خلال ما تقدم، أن الرموز البصرية في رسوم الأطفال تمثل البنية النفسية الخفية للخطاب الفني الطفولي، فهي ليست عناصر جمالية تُضاف إلى الرسم، بل هي جوهر المعنى ذاته. فالرمز البصري هو الوسيط الذي تنتقل عبره الانفعالات من اللاشعور إلى السطح البصري، لتتحول إلى علامات يمكن قراءتها وتأويلها.

وإن فهم هذه الرموز لا يتحقق إلا من خلال الجمع بين المنهج الجمالي والمنهج السيكولوجي؛ لأن الطفل حين يرسم لا يعبر عن العالم المادي بل عن عالمه الوجداني، فيحول خبراته ومخاوفه ورغباته إلى لغة مرئية.

وترى الباحثة أن تحليل الرموز البصرية ينبغي أن يُؤسس على ثلاثة مبادئ:

١. أن الرمز هو نتاج تفاعل بين الذات والبيئة، لا مجرد شكل بصري مستقل.
٢. أن قراءة الرموز تتطلب تتبع السياق الانفعالي والتجريبي للطفل، لأن الدلالة لا تكمن في الشكل وحده بل في التجربة التي أنتجته.
٣. أن الرموز في الرسم الطفولي تمثل أداة تشخيص نفسي وتربوي يمكن توظيفها للكشف عن الحالات الشعورية والاضطرابات الانفعالية في مراحل مبكرة.

وبناءً على ذلك، فإن دراسة الرموز البصرية لا تسهم فقط في فهم التعبير الفني للطفل، بل تقدم أيضاً نافذة تشخيصية تربط بين الفن والنفس، وتجعل من الرسم وسيلة علاجية وتربوية ذات قيمة إنسانية عميقة.

مؤشرات الإطار النظري.

١. تعد رسوم الأطفال وسيلة رمزية للتعبير غير اللفظي عن الخبرات الانفعالية، إذ تعمل كمرآة تكشف عن محتوى الذاكرة العاطفية المخزنة في اللاوعي، وتعبر عنها بصيغ بصرية رمزية تختلف باختلاف العمر والنضج النفسي.
٢. الرموز البصرية في رسوم الأطفال تحمل دلالات نفسية واجتماعية مركبة، فهي ليست مجرد أشكال فنية، بل نظام لغوي بصري تتجلى فيه استجابات الطفل تجاه ذاته والبيئة المحيطة به.
٣. تتجسد الذاكرة العاطفية في الرسم من خلال التكرار الرمزي للأشكال والألوان والخطوط، بما يعكس محاولات الطفل لإعادة بناء مشاعره وتجربته الداخلية عبر الصورة.

٤. كل رمز بصري في رسومات الطفل يمكن أن يعد مؤشراً تشخيصياً لحالته النفسية، كالألوان الداكنة التي قد تدل على القلق أو الخوف، أو الخطوط المتقطعة التي توحي بالتردد أو الصراع الداخلي.
٥. تتأثر الرموز البصرية ببيئة الطفل الثقافية والاجتماعية، إذ تُعيد الرسوم إنتاج ما يختزنه وعي الطفل من رموز مألوفة في الأسرة والمجتمع والمدرسة، مما يجعلها وثيقة نفسية وثقافية في آن واحد.
٦. يُسهم التحليل الرمزي البصري لرسوم الأطفال في الكشف المبكر عن المشكلات الانفعالية والسلوكية، كالاكتئاب أو العدوان أو الانسحاب الاجتماعي، وهو ما يجعلها أداة مساعدة في التشخيص النفسي التربوي.
٧. العلاقة بين الذاكرة العاطفية والرمز البصري علاقة ديناميكية متبادلة، إذ تُعيد الذاكرة إنتاج الصور الذهنية في شكل رموز بصرية، في حين تُنشط عملية الرسم تلك الذاكرة وتعيد تشكيلها.
٨. ينبغي قراءة رسوم الأطفال بوصفها خطاباً بصرياً متعدد الطبقات، يتطلب فهماً للأسلوب الشخصي في التعبير، إضافة إلى معرفة الرموز الجماعية والثقافية التي يستعيرها الطفل دون وعي.
٩. يتجلى النمو النفسي والانفعالي للطفل من خلال تطور رموزه البصرية، إذ تتحول الرموز من البساطة إلى التعقيد، ومن التلقائية إلى التنظيم، بما يعكس تدرجه في الإدراك والوجدان.
١٠. تحليل الرموز البصرية في رسوم الأطفال يتطلب مقاربة تكاملية، تجمع بين المنظورين النفسي والفني، بحيث لا يُختزل الرسم إلى مؤشرات مرضية فقط، بل يُفهم بوصفه عملية تواصل وجداني وإبداعي في آن واحد.
١١. الرموز البصرية تُعد جسراً بين الخبرة الداخلية والواقع الخارجي، فهي تتيح للطفل تفريغ انفعالاته المؤلمة أو المكبوتة بطريقة آمنة، وتساعده على إعادة التوازن النفسي عبر عملية الإبداع.
١٢. تشير رسوم الأطفال إلى إمكانية استخدام الفن كأداة للعلاج النفسي، إذ يمكن توظيفها ضمن برامج تربوية علاجية تهدف إلى تعزيز الاستقرار العاطفي وتنمية الوعي بالذات.

الدراسات السابقة:

لقد شهدت السنوات الأخيرة تزايداً في الأبحاث التي تتناول الجوانب السيكولوجية والتربوية لرسوم الأطفال بوصفها لغة تعبيرية وإسقاطية. ومن أبرز هذه الدراسات التي تتقاطع مع موضوع البحث الحالي، الدراسة الموسومة بـ "سيكولوجية رسوم الأطفال" للباحث عبد المطلب القريطي. هدفت هذه الدراسة إلى بحث العلاقة بين التعبير الفني والتركيبة النفسية للطفل، وكيف تعكس الرموز البصرية "التمثيل الوجداني" بدلاً من الإدراك الواقعي. وقد

توصلت الدراسة، التي استندت إلى أسس التحليل النفسي، إلى أن الطفل لا يرسم ما يراه بل ما يشعر به، مما يجعل من الرسم أداة تشخيصية قادرة على كشف الصراعات اللاشعورية والدوافع النفسية بطريقة رمزية.

وفي سياق متصل يركز على الجانب التربوي والارتقائي، جاءت دراسة الباحث حامد زهران بعنوان "علم نفس النمو"، والتي استهدفت استكشاف آليات الكشف عن العالم النفسي للطفل من خلال نتاجه الفني. وقد كشفت نتائج الدراسة عن أن الرسم يعد من أهم الوسائل التي تتيح للطفل تفريغ شحناته الانفعالية ومواجهة إحباطاته، مشيرةً إلى ضرورة فهم "الترميز البصري" (مثل المبالغة في الأحجام أو حذف بعض الأجزاء) كدلالات على الأهمية الوجدانية أو المخاوف الكامنة.

من خلال استعراض هاتين الدراستين، يتضح أنهما أسستا قاعدة معرفية مهمة بخصوص التفسير السيكولوجي لرسوم الأطفال من الناحية الإجرائية والتحليلية؛ فقد ركزتا بشكل أساسي على القيمة التشخيصية للرسم وآليات الإسقاط النفسي. إلا أن الدراسات المذكورة تتفق في أنها لم تتعمق في ربط هذه الرموز بشكل مباشر بمفهوم "الذاكرة العاطفية" بوصفها مستودعاً للخبرات الانفعالية التي تُستدعى وتُعاد صياغتها بصرياً، وهو ما يسعى البحث الحالي إلى تسليط الضوء عليه من خلال الربط بين الرمز البصري والآلية التي تعمل بها الذاكرة العاطفية في توجيه التعبير الفني.

الفصل الثالث/ اجراءات البحث

أولاً : مجتمع البحث

تم تحديد مجتمع البحث الحالي بجميع تلاميذ المرحلة الابتدائية للفئة العمرية (٦ – ١٢) سنة في مركز مدينة الحلة، للعام الدراسي (٢٠٢٤/٢٠٢٥)م. بلغ العدد الإجمالي للمجتمع (٦٥٠) تلميذاً وتلميذة موزعين على (١٠) مدارس، كما في جدول (١):

جدول (١) اعداد التلاميذ

ت	الجنس	العدد
١	الذكور	٣٠٠
٢	الاناث	٣٥٠
المجموع		٦٥٠

ثانياً: عينة البحث

تم اختيار عينة البحث بطريقة قصدية لتمثيل البيئات التعليمية المختلفة في مركز المدينة. وقد اختير هذا المجتمع لأن رسوم هذه الفئة غالباً ما تعبر عن تجاربهم العاطفية المبكرة، وعن الذاكرة الانفعالية التي تشكلت داخل الأسرة والمدرسة، مما يجعلها مادة مثالية للتحليل الرمزي البصري. بلغ حجم العينة الكلي (٣٠٠) تلميذ وتلميذة، بواقع (١٤٣) من الذكور و(١٥٧) من الإناث من (٤) مدارس كما في جدول (٢).

جدول (٢): توزيع عينة المدارس والطلبة حسب المنطقة والجنس

ت	اسم المدرسة	الموقع	التلاميذ
١.	العقيلة للبنات	الثورة	٨٠
٢.	الرسول للبنات	الجمعية	٧٧
٣.	الزهاوي للبنين	حي الإمام	٨٦
٤.	١٤ تموز للبنين	الإسكان	٥٧
المجموع			٣٠٠

ثالثاً: منهج البحث

اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي (التحليلي)، وهو المنهج الأكثر ملاءمة لدراسة الظواهر التربوية والفنية، حيث لا يكتفي الباحث برصد الظاهرة، بل يسعى إلى تحليل محتواها وتفسير دلالاتها السلوكية والجمالية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية.

رابعاً: أداة البحث

قامت الباحثة ببناء استمارة تحليل مكونة من (١٠) فقرات أساسية. صُممت هذه الفقرات لتقيس خصائص الرسم والتعبير الرمزي لدى الأطفال، مع التركيز على انعكاس العلاقات الاجتماعية والبيئية في نتاجاتهم الفنية.

خامساً: تحليل العينات

عينة ١

اسم الرسمة: العودة من المدرسة

عمر التلميذ: ١٠ سنوات

تصوّر الرسمة مشهدًا يوميًا بسيطًا،الأم في الجهة اليسرى، تمسك بزهور وحقيبة يد وترحّب بابنتها العائدة من المدرسة وهي ترتدي الزي المدرسي الواقعة في الجهة اليمنى. الخلفية هادئة، والأرضية بلون فاتح يوحي بمكان مفتوح، بينما تظهر ساعة على الجدار وصورة لقلب محاط بقلوب صغيرة.

تشير اللوحة إلى بنية رمزية تستند إلى تمثيل لحظة يومية تتمثل في عودة الطفلة من المدرسة وهي ترتدي الزي المدرسي واستقبال الأم لها، وهو مشهد يُعاد إنتاجه بصرياً بوصفه جزءاً ثابتاً من الذاكرة العاطفية للطفل. ويكشف التحليل عن حضور واضح للارتباط الآمن ، إذ تُشكِّل الأم المحور العاطفي الرئيس داخل التكوين من خلال حجمها الأكبر وألوانها الأكثر حيوية وحضورها في الجهة اليسرى بما يعزز مركزيتها في الإدراك البصري للطفل. ويبرز اعتماد الطفل لرموز مباشرة ذات دلالات وجدانية مثل الأزهار، والقلوب، وعبارات المودة داخل

فقاعات الكلام، مما يشير إلى علاقة أسرية مستقرة تقوم على الاحتواء والتعبير المتبادل عن الحب. كما يعكس وجود الحقيبة المدرسية والورقة في يد الطفلة إدراكاً وظيفياً لدور المدرسة، لكنه لا يظهر بوصفه مصدراً للضغط أو القلق، بل كجزء من سرد يومي ينتهي بالعودة إلى مجال الأمان الأسري. وتشير عناصر مثل الساعة المعلّقة والتي تشير الى وقت رجوع الطفلة من المدرسة واللوحة الحائطية المزدانة بالقلوب إلى رسوخ هذه اللحظة في الذاكرة البصرية للطفل، باعتبارها حدثاً متكرراً ومحمّلاً بالمعنى. ويتسم التكوين اللوني بسيادة الألوان الفاتحة والمحايدة في الخلفية، ما يدل على غياب التوتر الانفعالي وهيمنة الشعور بالطمأنينة. وبذلك تمثل اللوحة نموذجاً دالاً على كيفية توظيف الطفل للرموز البصرية في التعبير عن علاقته بالأسرة، وتكشف عن بنية وجدانية إيجابية تتسم بالاستقرار والانسيابية النفسية.

عينة ٢

اسم الرسمة: سفرة عائلية

عمر التلميذ: ٨ سنوات

تكشف الرسمة عن مشهد عائلي في فضاء خارجي مفتوح، حيث تُصوَّر مجموعة من الذكور، الأب ذو اللحية السوداء وثلاثة ابناء اثنان يمارسان اللعب والآخر يمثل دور الحكم – في نشاط ترفيهي يتمثل في السفر واللهو بكرة القدم قرب مساحة مائية. ويعتمد الطفل في بناء تكوين اللوحة على توزيع خطّي يُبرز الفعل الحركي في الجزء العلوي، مقابل حضور الاخ الاكبر في موقع منفصل على اليسار يمسك ببطاقة الحكم، بشكل يعزز سلطته الرمزية بوصفه الاخ الاكبر داخل الأسرة. ورغم وضوح الطابع العائلي للمشهد، يلفت الانتباه غياب الأم والأخوات، وهو غياب يتكرر في العديد من رسوم الأطفال العراقيين، ويُعد مؤشراً بصرياً مرتبطاً بالخبرة الاجتماعية لا بالضرورة بالعاطفة المباشرة. إذ تشير الأدبيات النفسية والتربوية إلى أن الأطفال غالباً ما يعيدون إنتاج ما هو "مسموح اجتماعياً" أو "مألوف ثقافياً" في مخيلتهم عند تمثيل الأنشطة الخارجية، خصوصاً تلك المتعلقة باللعب والرياضة، وهي أنشطة يُنظر إليها في بعض البيئات بوصفها مجالات يغلب عليها الحضور الذكوري. وعليه، فإنّ غياب الشخصيات الأنثوية هنا لا يُفهم كغياب عاطفي، بل كإعادة تمثيل لواقع اجتماعي يحدّ من مشاركة النساء في فضاءات اللعب أو النزهات الخارجية، مما يجعل الطفل يُسقط ما يراه في محيطه على مخيلته الرسومية. كما يعزز اختيار الطفل للفضاء المفتوح ذي الخط الأفقي الواسع، ووجود القوارب الصغيرة في الماء، فكرة الانطلاق والنشاط المرتبطين ذهنياً بالذكور في السياق الاجتماعي التقليدي. وبذلك تقدم اللوحة نموذجاً دالاً على كيفية ترميز الطفل للأنشطة الخارجية من خلال تمثيل انتقائي لأفراد الأسرة، يعود بالدرجة الأساس لثقافة الدور الاجتماعي أكثر مما يعود إلى العلاقة العاطفية داخل الأسرة.

عينة ٣

اسم الرسمة: الاصدقاء

عمر التلميذ: ٨ سنوات

تمثل هذه الرسمة نموذجاً لرسوم الأطفال التي توظف التمثيل الرمزي لتجسيد العلاقات الاجتماعية، حيث يصوّر الطفل ثلاثة اخوة يقفون جنباً إلى جنب داخل فضاء مفتوح. ويعتمد التكوين على توزيع أفقي للشخصيات على خط أرض واضح، بما يشير إلى إدراك أولي لمفهوم الاستقرار المكاني وتنظيم المشهد. وقد جاءت الشخصيات متقاربة في والشكل والملابس، وهو ما يعكس إحساساً بالمساواة بارتداء الزي المدرسي، ويؤكد غياب التراتبية أو السلطة داخل العلاقة المصوّرة، الأمر الذي يتوافق مع طبيعة الاخوة في مرحلة الطفولة. كما يوحي تشابه البناء الشكلي للأجساد والرؤوس باستخدام قوالب تخطيطية متكررة، وهو سِمَة من سمات المرحلة التخطيطية في رسوم الأطفال، حيث يتم التركيز على الفكرة العامة للعلاقة الاجتماعية أكثر من إبراز الفروق الفردية. وتكشف الوضعيات البسيطة للأذرع والأرجل عن حالة من الهدوء والاستقرار، بما يدل على أن العلاقة بين الاخوة قائمة على الألفة لا على الصراع أو الحركة العنيفة. أما الفضاء المحيط، الذي تهيمن عليه السماء الزرقاء الواسعة والأرض الخضراء، فيؤدي وظيفة نفسية تتمثل في خلق مناخ من الطمأنينة والانفتاح، ويعزز دلالة المشهد بوصفه تجربة اجتماعية إيجابية. كما يشير توظيف الشمس في أحد أركان اللوحة إلى وعي الطفل بالزمن الخارجي (النهار)، وهو عنصر يرتبط عادة باللعب أو اللقاءات الاجتماعية. وبذلك تكشف الرسمة عن ذاكرة اجتماعية إيجابية لدى الطفل، حيث تُستخدم الرموز البصرية البسيطة للتعبير عن الاخوة، والانتماء الجماعي، والشعور بالأمان ضمن المحيط الاجتماعي، دون ظهور مؤشرات بصرية على العزلة أو التوتر.

عينة ٤

اسم العمل : سكون الليل

عمر التلميذ : ٩ سنوات

يتكون العمل الفني من تكوين بصري هادئ يتوسطه اطار نافذة مقسم اربع اقسام نشاهد وجود غصن شجرة وهلال ليلي وفانوس صغير ونشاهد تدلي سلسلة من الأضواء المضيئة ذات اللون الأصفر المائل الى الأخضر .تعتمد اللوحة على التكوين البسيط المتوازن حيث وجود النافذة في مركز العمل لتكون العنصر الأساسي لجذب نظر المتلقي ، وان تقسيم اللوحة الى أجزاء يعطي اللوحة شعور بالاستقرار .

حيث استخدم في هذه اللوحة الخطوط المستقيمة في اطار اللوحة للدلالة على الثبات اما الخطوط المنحنية في حبال الإضاءة واغصان الشجر تمنح التكوين حركة وايقا ع بصري هادئ ، اعتمد العمل على درجات الرصاص الرمادية مع وجود اللون الأصفر المائل للا خضر في الهلال والمصابيح مما خلق تباينا واضحا وجعل عناصر الضوء اكثر بروزا داخل الجو الليلي .

اما من الناحية التعبيرية فاللوحة تعكس أجواء ليلية هادئة تحمل معاني الدفء والطمأنينة فالفانوس والهلال يرمزان الى الهدوء والنور بينما تضيف الأضواء المعلقة إحساسا با لالفة والمحبة .

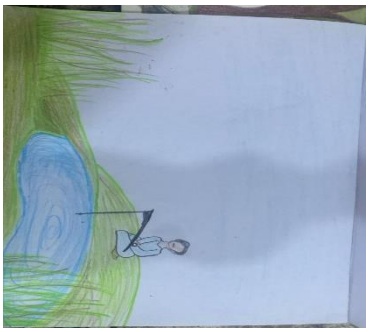

عينة ٥

اسم العمل : عزلة صامتة

عمر التلميذ : ١١ سنة

يجسد العمل الفني مشهد طبيعي بسيط يحمل في طياته ابعاد رمزية وتأملية حيث يظهر عنصر الماء محاطا بالمساحات الخضراء ،، بينما يجلس شخص صغير بالقرب من البركة في حالة هدوء وتأمل حيث اعتمدت الرسمة أسلوب البساطة في الشكل والخطوط الحرة مما يكسبها طابع حيوي وعفوي قريب من التعبير الوجداني المباشر،

اما الناحية الفنية فقد استخدم الفنان الألوان الباردة والدافئة بصورة متوازنة فالأزرق في الماء يعكس الصفاء والسكون اما درجات الأخضر فتوحي بالحياة والنمو والطبيعة والفراغ الأبيض الواسع في اللوحة يعد عنصرا بصريا مهما ، حيث يمنح إحساسا بالهدوء والعزلة ، فحجم الشخصية الصغير مقارنة بالفضاء المحيط بيها يعزز فكرة

التأمل او الوحدة النفسية .ويظهر التكوين البصري قائما على البساطة اذ تركزت العناصر الأساسية في جانب واحد من العمل مع خطوط مرنة وغير حادة اكسبت المشهد طابع عفوي وانسيابي .

الفصل الرابع

عرض النتائج ومناقشتها

يتناول هذا الفصل عرضاً للنتائج التي توصل إليها البحث الحالي بناءً على تحليل الرموز البصرية في عينة من رسوم الأطفال، وتفسير دلالاتها المرتبطة بالذاكرة العاطفية، ومن ثم مناقشتها في ضوء الإطار النظري والدراسات السابقة.

أولاً: النتائج

من خلال تطبيق أداة التحليل على رسوم الأطفال (العينة)، ظهرت النتائج الآتية:

١. معظم الأطفال (الفئة العمرية ٦–١٢ سنة) يميلون إلى استخدام رموز بصرية (خطوط، أشكال، ألوان) تعبر عن مخزونهم النفسي وتجاربهم السابقة.

٢. تبين أن الخطوط المتوترة في الرسوم ارتبطت بحالات القلق، بينما عكس اختيار الألوان الدافئة (كالأحمر) دلالات الحيوية أو الغضب، مما يؤكد أن الرسم وسيلة تشخيصية غير مباشرة

ثانياً: الاستنتاجات

في ضوء النتائج والمناقشة، توصل البحث إلى الاستنتاجات الآتية:

٣. تُعد الرموز البصرية في رسوم الأطفال مفتاحاً لفهم الذاكرة العاطفية، حيث تعكس الصراعات اللاشعورية والدوافع النفسية بطريقة رمزية صادقة.

٤. هناك مواءمة فطرية بين رسوم الأطفال والأسلوب التجريدي والرمزي، مما يجعل من الرسم قناة اتصال آمنة للتفريغ الانفعالي.

٥. الطفل يرسم ما يشعر به لا ما يراه، حيث ظهرت مبالغات في أحجام بعض الشخصيات لتعكس مكانتها الوجدانية أو الخوف منها.

٦. الرموز البصرية تعمل كـ "لغة إسقاطية" تفصح عن البنية العاطفية للطفل.

٧. الذاكرة العاطفية تتدخل في توزيع العناصر داخل الفضاء البصري للرسم

ثالثا : مناقشة النتائج

أظهرت نتائج البحث ان الرموز البصرية في رسوم الأطفال ترتبط ارتباط مباشر بمحتوى الذاكرة العاطفية لديهم ، اذ تبين ان الأطفال يوظفون الخطوط والألوان والاحجام بوصفها تمثيلات رمزية لتجاربهم الانفعالية اكثر من كونها محاكاة واقعية للعالم الخارجي وتؤكد هذه النتيجة ما ذهب اليه القريطي من ان الطفل (يرسم ما يشعر به لا ما يراه) حيث اتضح ان الرسوم كانت انعكاسا للحالة الشعورية الكامنة خلف التجربة اليومية .

كما بينت النتائج ان الخطوط المتوترة او الحادة ارتبطت بمؤشرات القلق او الاضطراب الداخلي في حين عكست الخطوط الانسيابية والألوان الفاتحة حالة من الاستقرار النفسي والشعور بالأمان . ويشير ذلك الى ان العناصر التشكيلية في الرسم الطفولي تؤدي وظيفة إسقاطية تتجاوز الجانب الجمالي لتصبح مؤشرات نفسية يمكن الاستناد اليها في القراءة التشخيصية للحالة الانفعالية للطفل وتتفق هذه النتيجة مع ما أكده زهران والهنيدي حول العلاقة بين طبيعة الخطوط والألوان وبين البناء النفسي والانفعالي لدى الطفل.

رابعا: التوصيات

١. ضرورة تفعيل دور المرشدين التربويين في المدارس الابتدائية لاستخدام تحليل رسوم الأطفال كأداة
٢. تشخيصية للكشف عن المشكلات النفسية المبكرة.
٣. حث معلمي التربية الفنية على عدم إلزام الأطفال بالرسم الواقعي، وتشجيعهم على التعبير التلقائي (التجريدي والرمزي) لتعزيز الصحة النفسية لديهم.

رابعاً: المقترحات

١. إجراء دراسة مقارنة بين الرموز البصرية لدى الأطفال الذين تعرضوا لصدمات عاطفية وأقرانهم في بيئات مستقرة.
٢. بناء برنامج تعليمي قائم على "الفن العلاجي" لتنمية الذكاء العاطفي لدى طلبة المرحلة الابتدائية.

إحالات البحث:

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ج٥، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، ص ٣٥٨.

(٢) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٣) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٢٤١.

(٤) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٤٠١.

(٥) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٢٤٨.

(٦) درويش، سعيد: الرمز والرمزية في الفن التشكيلي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد ٢٩،العدد١، ٢٠١٣ ،ص ٦٦٠-٦٦٤ .

(٧) اليحيائية، فخرية بنت خلفان: الرموز الشكلية والبصرية في العمل التصويري المعاصر، المجلة الأردنية للفنون، المجلد ٨، العدد ١، ٢٠١٥ ، ص ١٧.

(٨) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٧،ص ٤٥.

(٩) القريطي، عبد المطلب أمين: مدخل إلى الرسم الطفولي، ، دار المسيرة ،عمان، الأردن، ٢٠١٤، ص٢٢.

(١٠) جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٧٨.

(١١) الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ٢٠١٨ ، ص ١٥٢.

(١٢) عبد الفتاح، محمد: التشخيص النفسي وأساليبه،، دار غريب، القاهرة ،٢٠١١، ص١١٠.

(١٣) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي ، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان،٢٠٠٣، ص٨٩.

(١٤) القريطي، عبد المطلب أمين: مدخل إلى الرسم الطفولي، عمّان: دار المسيرة، ٢٠١٤، ص ١٨.

(١٥) القريطي، عبد المطلب أمين: المصدر نفسه، ص ٢١.

(١٦) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠١٧، ص ٤٥.

(١٧) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي، بيروت: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣، ص ٨٨.

(١٨) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، مصدر سابق، ص ٨٣.

(١٩) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي ،مصدر سابق، ص ٩٠.

(٢٠) عبد الفتاح، محمد: التشخيص النفسي وأساليبه، القاهرة: دار غريب، ٢٠١١، ص ١١١.

(٢١) عبد الفتاح، محمد: المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٢٢) القريطي، عبد المطلب: مدخل إلى الرسم الطفولي، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٢٣) جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٤، ص ٧٧.

(٢٤) جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٢٥) الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، عمّان: دار وائل للنشر، ٢٠١٨، ص ١٥٢.

(٢٦) الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(٢٧) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال ، مصدر سابق، ص ٩٢.

(٢٨) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال: المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٢٩) جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، مصدر سابق، ص ٨١.

(٣٠) فرويد، سيغموند: مقدمة في التحليل النفسي، تر: مصطفى صفوان، بيروت: دار النهار، ١٩٨٣، ص ٢١٦.

(٣١) القريطي، عبد المطلب: مدخل إلى الرسم الطفولي ،مصدر سابق، ص ٣٢.
(٣٢) الهنيدي، منال : سيكولوجية رسوم الأطفال ، مصدر سابق، ص ٩٧.
(٣٣) الهنيدي، منال : سيكولوجية رسوم الأطفال ، المصدر نفسه، ص. ٩٩.
(٣٤) عبد الفتاح، محمد: التشخيص النفسي وأساليبه ،مصدر سابق، ص ١١٥.
(٣٥) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي ،مصدر سابق، ص٩٣.
(٣٦) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، مصدر سابق، ص ١٠٤.
(٣٧) القريطي، عبد المطلب أمين: مدخل إلى الرسم الطفولي، مصدر سابق، ص ٤٤.
(٣٨) القريطي، عبد المطلب: المصدر نفسه، ص ٤٧.
(٣٩) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي، مصدر سابق، ص ٩٦.
(٤٠) صالح، أحمد زكي: سيكولوجية النمو، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٨، ص ١٢١.
(٤١) الهنيدي، منال: مصدر سابق، ص ١٠٨.
(٤٢) جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٤، ص ٨٨.
(٤٣) الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، عمّان: دار وائل للنشر، ٢٠١٨، ص ١٦٠.
(٤٤) القريطي، عبد المطلب: مصدر سابق، ص ٥٠.
(٤٥) زهران، حامد: مصدر سابق، ص ٩٨.
(٤٦) الهنيدي، منال: مصدر سابق، ص ١١١.
(٤٧) القريطي، عبد المطلب: مدخل إلى الرسم الطفولي، مصدر سابق، ص ٥٥.
(٤٨) الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، مصدر سابق ،ص ١٢٣.
(٤٩) الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، عمّان: دار وائل للنشر، ٢٠١٨، ص ١٦٩.
(٥٠) زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي، مصدر سابق، ص ١٠٠.
(٥١) القريطي، عبد المطلب: مصدر سابق، ص ٦٠.
(٥٢) الهنيدي، منال: مصدر سابق، ص ١٢٩.
(٥٣) الطائي، عدنان: مصدر سابق، ص ١٧١.
(٥٤) صالح، أحمد زكي: سيكولوجية النمو، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٨، ص ١٣٢.
(٥٥) الهنيدي، منال: مصدر سابق، ص ١٣٦.
(٥٦) الطائي، عدنان: مصدر سابق، ص ١٧٢.
(٥٧) زهران، حامد: مصدر سابق، ص ١٠٤.
(٥٨) القريطي، عبد المطلب: مصدر سابق، ص ٦٦.
(٥٩) الهنيدي، منال: مصدر سابق، ص ١٤١.
(٦٠) زهران، حامد: مصدر سابق، ص ١٠٦.
(٦١) جابر، عبد الحميد: مصدر سابق، ص ٩٥.

المصادر:

١. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ج٥، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
٢. جابر، عبد الحميد: علم النفس المعرفي، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٤.
٣. درويش، سعيد: الرمز والرمزية في الفن التشكيلي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد ٢٩،العدد١، ٢٠١٣.
٤. زهران، حامد: علم النفس الإكلينيكي ، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان،٢٠٠٣.
٥. صالح، أحمد زكي: سيكولوجية النمو، القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٨.
٦. الطائي، عدنان: علم النفس العصبي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ٢٠١٨.
٧. عبد الفتاح، محمد: التشخيص النفسي وأساليبه، القاهرة: دار غريب، ٢٠١١.
٨. فرويد، سيغموند: مقدمة في التحليل النفسي، تر: مصطفى صفوان، بيروت: دار النهار، ١٩٨٣.
٩. القريطي، عبد المطلب أمين: مدخل إلى الرسم الطفولي، ، دار المسيرة ،عمان، الأردن، ٢٠١٤.
١٠. الهنيدي، منال: سيكولوجية رسوم الأطفال، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠١٧.
١١. اليحيائية، فخرية بنت خلفان: الرموز الشكلية والبصرية في العمل التصويري المعاصر، المجلة الأردنية للفنون، المجلد ٨، العدد ١، ٢٠١٥ .